التدخل العسكري الروسي المكثف في سورية: الدوافع والتداعيات والنتائج

مصطفـى عـبد العـزيز مرســي•

دبلوماسي سابق وكاتب مصري – القاهرة

جاء هذا التدخل في وقت تقطعت فيه أوصال الدولة السورية، وفقدت فيه السيطرة على جزء كبير من أراضيها، وتعددت جبهات المعارضة وتشتت، وتحول معها الصراع في الساحة السورية من أزمة داخلية إلى صراع إقليمي/دولي متعدد الأطراف، مما جعل هذه الأزمة تدور في حلقة مفرغة بين مسار عسكري لم يتم حسمه، وملامح لمسار سياسي يصعب تحديد مضمونه للتباين الواسع بين مصالح الأطراف المعنية وتناقضها مما جعلها تخوض حروبًا متداخلة ومتعارضة يدفع الشعب السوري ثمنها الفادح.

وأصبحت أراضٍ سورية مستباحة لمجموعات متطرفة من كل الجنسيات. وقد نتج عن هذه التطورات انسداد أفق مسار التسوية السياسية للمحنة السورية نتيجة عجز المكونات السورية (نظاماً ومعارضة) عن حسم الموقف، كما عجزت القوى الإقليمية بدورها عن ذلك. وفي ظل تبعثر الجهود الميدانية وتشتت المواقف الإقليمية وتباين مرجعياتها أصبح الاعتماد على العاملين المحلي والإقليمي وحدهما في حسم الصراع ميدانياً، أمراً غير مجدٍ وتزايد تدهور الأوضاع السورية وتجاوزت إطار الجغرافي، وأصبحت تهدد المنطقة والعالم.[1]

• كاتب مصري ومساعد سابق لوزير الخارجية Email:mostafaaziz_migrationcenter@yahoo.com

(1) حذرت بعض المصادر السياسية والإعلامية الغربية، من خطورة الفشل في إيجاد حل للأزمة السورية لأنه قد يشعل شرارة حرب عالمية ثالثة.

وإزاء الواقع العربي المرير، بدأ الاتجاه إلى الاستنجاد بالقوى الكبرى، على خطورة ذلك، وبصفة خاصة الولايات المتحدة وروسيا، وانتظار التوافق بينهما. والأولى أقامت تحالفاً يعد الأكبر في التاريخ، ضد "داعش" وقامت على مدى عام بمئات الطلعات الجوية ضدها، ولم يؤد ذلك إلى نتائج ملموسة، ويبدو أن الهدف الأمريكي كان اللعب بالوقت لإطالة أمد المحنة السورية ولمزيد من إنهاك الجيش السوري، ليلحق بوضع الجيش العراقي، خدمة لأمن ومصالح بعض الأطراف في المنطقة المجاورة.

وفي تلك المرحلة بدأ الوضع الميداني للجيش السوري في التراجع وتزايدت خسائر عناصره، سواء الذين قتلوا خلال المعارك على جبهات متعددة التي يسودها نسق حرب العصابات والتي استمرت لأكثر من أربع سنوات، إضافة للأفراد الذين انشقوا عنه. وإجمالاً أصيب الجيش السوري بالإرهاق والنقص في طاقاته البشرية مما أدى إلى انسحاب قواته من بعض المواقع وهو واقع مرير اعترف به بشار الأسد.

وأدى هذا الوضع الحرج إلى استنجاد الرئيس السوري بالقادة الروس. وبعد إقرار البرلمان الروسي بالإجماع منح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الحق في استخدام القوات الجوية الروسية في العمليات بالأراضي السورية لدعم نظام حليف والمعقل الأخير للوجود الروسي في الشرق الأوسط، بدأت روسيا يوم 2015/9/30 في عملياتها الجوية ضد مواقع التنظيمات المتطرفة ومازالت مستمرة.

وفي إعدادنا لهذا الموضوع واجهتنا بعض الصعوبات الموضوعية. فنحن نتعامل مع أحداث جارية لم تكتمل دورتها بعد، والمتغيرات فيها أكثر من الثوابت، والمجهول من عناصرها يتجاوز المعروف عنه.

وفي تناولنا لهذا الواقع سنبدأ أولاً في التعرف على دوافع الموقف الروسي وأهدافه وخلفياته، ثم سنحلل ثانية ردود أفعال بعض الأطراف الإقليمية والدول ذات العلاقة، ثم في ثالثاً سنقوم بتقييم عام لعملية التدخل العسكري الروسي.

أولاً: في دوافع وأهداف التدخل الروسي

1- يلفت النظر وصف بوتين المبكر في خطابه أمام "الدوما" عام 2005 لانهيار "الاتحاد السوفيتي": بأنه كارثة جيو سياسية. وأخذت القيادة الروسية برئاسة فلاديمير بوتين على عاتقها استعادة وجه روسيا الضائع وتجميع معالم الهوية القومية الروسية بعد هذا الانهيار. واستشعرت القيادة الجديدة في المراحل اللاحقة – وعن حق – أن الغرب ممثلاً في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لم يكتف بتفكيك "الاتحاد السوفيتي"، بل استمر في تنفيذ مخططه الذي يهدف لاختراق لفضاء ما بعده عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، وهو فضاء يمثل في المنظور الروسي، الحديقة الخلفية الجيوسياسية لروسيا الاتحادية. واعتبرت القيادة الروسية أن ذلك مخطط لحصار روسيا الاتحادية وعزلها واستضعافها ومؤشراً على الاستهانة بها (2) فاستجابت لدعم نظام حليف يؤمن لها موطئ قدم في المياه الدافئة التي شكلت هاجساً لحكام روسيا على مدى التاريخ، كما أن ذلك يمكنها من الحفاظ على وجود قواعدها على الشواطئ السورية. كما أن هذا التدخل يعزز مركز روسيا الاتحادية كلاعب رئيسي لا يسع الغرب تجاهله وشريك في تقرير مستقبل منطقة الشرق الأوسط. وبطبيعة الحال استثمر بوتين الفراغ الاستراتيجي الذي تركته واشنطن في الشرق الأوسط وفي أوروبا تدريجياً، في السعي لاستعادة هيبة روسيا الاتحادية.

2- ومن بين الأهداف الروسية أيضاً إشعار واشنطن بأنه آن الأوان للتوقف عن الاستهانة بالقوة العسكرية الروسية (3) والابتعاد عن سياسة الاستفزاز لروسيا بانتهاك

(2) تجدر الإشارة إلى أن روسياً استعادت معظم قوتها الاقتصادية والعسكرية في فترة زمنية قصيرة نسبياً، فأصبحت القوة العسكرية الروسية القوة الوحيدة المكافئة للولايات المتحدة، كما أصبح ترتيبها الاقتصادي العالمي القوة الخامسة، وثالث أكبر احتياطي نقدي، وهي مستمرة منذ وصول بوتين إلى الحكم في جهودها لاستعادة نفوذها في النظام الدولي. وفي تقدير القادة الروس أن تأجيج المشاعر القديمة يشكل دافعاً قوياً لتبرير الحروب في القرم وأوكرانيا وسورية. انظر سليم نصار، "بوتين يحيي أمجاد الإمبراطورية الروسية"، الحياة 2015/10/31.

(3) حرص بوتين على أن يستهل عملية التدخل العسكري في سورية باستعراض للقوة العسكرية الروسية، بظهور طائرات "سوخوي س-34" وإطلاق القذائف الانسيابية من نوع "كاليبر" من بحر قزوين إلى أهدافها على بعد 1500 كم، لتثبت للولايات المتحدة أن ذراعها العسكرية طويلة وقادرة على إصابة أهدافها.

ميزان القوة الصاروخية والنووية القائم بين البلدين، والتوقف عن إقامة أنظمة في الدول المجاورة تشكل تهديداً لأمن ومصالح روسيا. وترافق ذلك مع تفاقم الصراع مع أوكرانيا التي كانت قد خطت العام الماضي خطوة في اتجاه حلف الأطلنطي مما يمهد الطريق مستقبلاً لانضمامها لهذا الحلف. والإحساس بهذا الخطر جعل الإدارة الروسية تضيف 14 خطراً عسكرياً خارجياً أساسياً جديداً إلى عقيدتها العسكرية من بينها التصرفات أعلاه، إضافة لتهديدات التطرف والإرهاب. وبمصادقة بوتين على هذه الإضافات أصبح بمقدوره نشر القوات الروسية داخل القرم وفي أقاليم شرق أوكرانيا وغيرها.

3- كما كانت اعتبارات المخاوف الأمنية الذاتية وراء القرار الروسي بالتدخل العسكري المكثف في سورية. فقد أعلن الرئيس الروسي صراحة "أن الذهاب إلى محاربة الإرهاب في سورية هو دفاع مسبق عن الأمن القومي الروسي قبل أن ينتقل هذا الإرهاب إلى بلاده".

ورداً على سؤال وجهته وكالة ناس "لماذا الآن بالذات تدخل روسيا المعركة" أجاب سيرغي إيفانوف، مدير ديوان الرئاسة الروسية بالتذكير بالخطر الذي يشكله آلاف المقاتلين في صفوف "داعش" القادمين من روسيا وبلدان رابطة الدول المستقلة، ومضيفاً إننا نسعى ألا يعود أحد من "داعش" إلى روسيا كي يدفنوا جميعاً في أرض سورية".[(4)]

ثانياً: **ردود أفعال الأطراف الإقليمية والدولية ذات العلاقة**

منذ بداية العمليات الروسية فوق الأراضي السورية ادعت أوساط أمريكية وأوروبية بل وعربية، أن الضربات الروسية ركزت على قوى المعارضة المعتدلة للنظام السوري،

---

(4) تذكر بعض التقارير أن نحو 2000 روسي يقاتلون مع داعش في سوريا والعراق بل وتتحدث تقديرات أخرى عن 5 آلاف روسي داعشي ووصل الأمر إلى خطورته مع إصدار التنظيم مجلة باللغة الروسية حملت اسم ايستوك.

وهو ما نفته المصادر الرسمية الروسية، وطالبت بتزويدها بإحداثيات تواجد التنظيمات المتطرفة ولم تلق استجابة لذلك. كما عرضت روسيا على الأطراف المتعددة الانضمام لمركز بغداد المعلوماتي لمكافحة داعش والذي يضم العراق وسورية وإيران إضافة لروسيا فلم تلق رداً. وهذا الموقف يعكس عدم رضا الغرب (بمعناه الواسع) عن التدخل الروسي، الذي حقق نتائج ملموسة خلال بضعة أسابيع لم يحققها الحلف الذي تقوده واشنطن على مدى أكثر من عام. وحرك التدخل الروسي المسار السياسي لحل الأزمة. في الواقع إننا أمام صراع على سورية أصبحت تحركه أطراف إقليمية ودولية كل منها له أطماع في أجزاء منها، وتسعى لتقسيمها ومستخدمة أطرافًا محلية. ومن هنا نعتقد أن القيادة الروسية تدرك أنه لكي تحقق بعض الاطمئنان لنجاح أهدافها فإن ذلك يتطلب بحث إمكانية إحداث تقارب بين المنظور الروسي لحل الأزمة من ناحية ومواقف بعض الأطراف الدولية والإقليمية ذات الصلة التي نوجزها فيما يلي:

الموقف الأمريكي:

قامت روسيا الاتحادية بالتدخل العسكري المكثف في سورية بناء على طلب بشار الأسد ولدعم حليفها وتوقياً لمجيء الموجة الإرهابية للأراضي الروسية. بينما نجد أن واشنطن وحلفاءها هدفهم المعلن هو إسقاط الأسد ودعم المعارضة وتغيير النظام، لذلك لم يكن غريباً أن تعبر واشنطن عن امتعاضها من التدخل الروسي ووصل الأمر إلى حد قول أوباما إن هذا التدخل سيؤدي إلى "كارثة مؤكدة".[5]

ومعضلة الولايات المتحدة أن التدخل الروسي ألقى الضوء على المخطط الأمريكي وفضحه، فالولايات المتحدة لا تريد شركاء خارج نطاق حلفائها، يمكن أن يسهموا في إعادة التشكيل السياسي لمنطقة الشرق الأوسط [6] ولكن تحت ضغط تطورات الأحداث في المنطقة، تقبلت إدارة أوباما التدخل العسكري الروسي كأمر واقع من ناحية، ومن

(5) مسعود الحناوي، "سوريا ومقدمات الحرب العالمية"، الأهرام 2015/10/16.

(6) د. محمد السيد سليم، "لماذا تعارض أمريكا الدور الروسي في سوريا"، الأهرام 2015/10/15.

ناحية أخرى تعبيراً عن أملها في أن تتورط روسيا الاتحادية في "المستنقع السوري" على نسق ما حدث في أفغانستان، وانتهت اللقاءات الروسية الأمريكية دون الاتفاق على التعاون المشترك ضد "داعش" واقتصر الأمر على مجرد تنسيق العمليات العسكرية في سورية لتجنب الصدام بين قواتيهما. ولا شك أن عدم التوصل إلى توافق بين الجانبين من شأنه إطالة أمد المحنة السورية، مالم تحدث تطورات جديدة.

الموقف السعودي:

للسعودية وبعض دول مجلس التعاون الخليجي موقف معلن ضد النظام السوري، وتقوم بدعم بعض فصائل المعارضة السورية. وقد قامت المملكة بعدة محاولات لإقناع روسيا لتغيير مواقفها تجاه نظام بشار الأسد وإيران ولم توفق في مسعاها.

ودور السعودية يعتبر دوراً محورياً بين القوى المناوئة لبشار الأسد والوجود الإيراني، ولها نفوذ في بعض الأوساط المعارضة داخل "الائتلاف الوطني" وعلى بعض الفصائل المقاتلة كالجيش السوري الحر وغيرها. وروسيا بالمقابل لها تأثيرها على بعض الأجنحة العسكرية والسياسية داخل النظام السوري والتي لا يروق لها وضع كل الأوراق بيد إيران [7] وللمملكة مصلحة في القضاء على "داعش" لما تمثله من خطورة عليها. ولذا فإن الأمر يحتاج لإعادة الإخراج المناسب لمواقف الجانبين، ولو لمرحلة انتقالية، لاسيما في ظل تراجع الثقة الخليجية في المواقف الأمريكية. وقد بدت بعض المؤشرات الأولية لذلك.

الموقف الإيراني:

ظلت إيران قوة محركة وأساسية على الأرض السورية وتدعمها كتائب من الحرس الثوري وميلشيات حزب الله وأبي فضل العباس، ولكنها فشلت في إنقاذ النظام السوري، وأصبحت غير قادرة على الصمود، واتضح ذلك في سعيها لهدنة الزبداني وبلدات الفوعة وكفريا، الأمر الذي أدى بالمقابل إلى زيادة أعباء الجانب الروسي، وفتح الباب بالتالي

(7) أحمد طاهر، "العلاقات الروسية السعودية: تحول جذري أم تغير لحظي"، السياسة الدولية – العدد 202 أكتوبر 2015 ص2017.

أمام تحجيم الدور الإيراني. ويوجد تباين حول شبكة المصالح لكل من إيران وروسيا، فالأخيرة تنطلق مواقفه من رؤية جيوسياسية برجماتية، بينما تتصدر الرؤية الأيديولوجية والطائفية مواقف الأولى.

وإذا كانت روسيا جادة ومتفهمة للمواقف العربية لا سيما الخليجية منها، تجاه إيران ودورها في إثارة النزاعات الإقليمية وفي مقدمتها تدخلها في حرب اليمن، وإذا كانت إيران ترغب في تسهيل مهمة روسيا في سورية، فإن عليها بعد اتفاقها النووي، التفكير في جدوى الانفتاح الإيجابي على جيرانها العرب، والتعاون معهم تعاوناً مسئولاً لوضح حد للنزاعات الطائفية في المنطقة العربية. ولقد ضغطت روسيا لضم إيران لاجتماعات فيينا II، وإذا نجحت في التوصل لمدخل اقتراب مناسب لمقايضة سياسية من خلف الكواليس، تدخل فيها حرب اليمن والأزمة السورية وغيرها، – وهو أمر يحتاج لجهد ومثابرة – ولكنه يستحق المغامرة، لأن الكل سيخرج رابحاً من هذه الصفقة، وستنعكس بشكل إيجابي على مسار المحنة السورية.

موقف تركيا:

تتبع تركيا سياسة مزدوجة يغلب عليها أسلوب الخداع السياسي. فقد انضمت الصيف الماضي إلى التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة ضد "داعش"، وهي التي تواطأت معها منذ البداية وأمدتها بالأسلحة [(8)] وتركت حدودها مفتوحة أمام المنضمين إليها. والأطراف التركية من أكبر المشترين والمسوقين للنفط الرخيص الذي تبيعه "داعش" من الآبار السورية والعراقية. وقد سبق أن وجهت موسكو تحذيراً شديداً لأنقرة من أن الطيران الروسي سيقصف كل المراكز التي يمر عبرها المقاتلون الأجانب والذين ينضمون "لداعش" في حال سمحت الحكومة التركية لمقاتلين بعبور الحدود. كما

(8) نشرت صحيفة "جمهويت" تسجيلاً مصوراً يكشف شحنات أسلحة كانت تحملها حافلات تابعة للمخابرات التركية لتسلمها لتنظيم "داعش" وقد ألقى القبض على رئيس تحريرها وأحيل للمحاكمة لاتهامه بإفشاء أسرار عسكرية.

تقوم أنقرة بالتنسيق مع الرياض والدوحة لزيادة الدعم العسكري والمتطور للمعارضة السورية المسلحة لمواجهة التدخل العسكري الروسي.[9]

وتضم تركيا أكثر من مليون ونصف من إجمالي اللاجئين السوريين، وسمحت بتدفق موجات من اللاجئين السوريين بالتدفق عبر الطريق البحري المؤدي إلى اليونان في محاولة للضغط على المجموعة الأوربية للحصول على موافقتها على إقامة المنطقة الآمنة، فضلاً عن الحصول على دعم مالي من هذه المجموعة، ولازالت في انتظار الموافقة على إقامة هذه المنطقة، بينما تمكنت من الحصول على ثلاثة مليارات من الاتحاد الأوروبي كإسهام في إيواء اللاجئين.

ولكن التطور الخطير الذي قام به الجانب التركي تمثل في إسقاط طائرة سوخوي يوم 2015/11/25، والتي اعتبرها بوتين "طعنة في الظهر" [10] وتعتقد الأوساط الروسية أن الهدف من هذه العملية " حملت عنوانين:

"**الأول** محاولة تكريس منطقة نفوذ تركية شمال غربي سورية حيث تقطن أقلية تركمانية، **والثاني** استكمال وضع مشروع المنطقة الآمنة على مسار التنفيذ، ما يعني أن حادث الطائرة الروسية الذي قتل فيه أحد طياريها وأنقذ الثاني، كان من بين أهدافه، إنهاء العمل باتفاق التنسيق فوق الأراضي السورية طالما أن موسكو لا تحترم مناطق نفوذ الآخرين، وهذا يفسر تأكيد الوزير سيرجي لافروف أن استهداف الطائرة كان "عملاً استفزازياً مدبراً، وليس ناجماً من خطأ".[11]

وضمن هذا السياق تجدر الإشارة إلى أنه خلال اجتماع قمة العشرين في أنطاليا خلال شهر نوفمبر قام بوتين بعرض مجموعة من صور التقطتها الأقمار الصناعية وتظهر كثيرًا من الحراك على الحدود المشتركة بين تركية وسورية، وأشار بوتين إلى أن

---

(9) حسين عبد العزيز، "الدور التركي بعد تدخل روسيا في سوريا"، الحياة 2015/10/14.

(10) لا نعتقد أن أنقرة تستطيع الإقدام على هذه الخطوة إلا بالتشاور المسبق مع واشنطن، ونظن أن هدفها كان إفشال الجهود الروسية في سورية.

(11) جريدة الحياة اللندنية بتاريخ 2015/11/26.

واحدة من نقاط قوة "داعش" أن بعض داعميها يجلسون في هذه القاعة. وهي إشارة فهمت على أنه يقصد بها تركيا على وجه الخصوص.

ولم تلجأ القيادة الروسية إلى إجراء عسكري مقابل حتى لا تستدرج لنزاع فرعي يشغلها عن المسألة السورية الرئيسية، وفضلت اللجوء إلى عقوبات اقتصادية ومالية لتركيا وتقوية الدفاعات الجوية في الأراضي السورية باستخدام منظومة صواريخ متطورة من نوع (إس 400). وبصفة عامة فإنه لاعتبارات ومصالح متعددة وواسعة في علاقات تركيا بإيران، فلا يتوقع منها أن تقوم بدور موازٍ أو مقابل لتحجيم الدور الإيراني في سوريا أو العراق، كما تأمل بعض الأطراف العربية. وعلى العموم فإن هذا الحادث سيعطي لروسيا فرصة لعزل تركيا عن سورية.

مواقف الاتحاد الأوروبي:

لا يوجد حتى الآن موقف موحد أو متناسق بشأن التدخل الروسي، فقد جاء هذا التدخل بعد أزمة أوكرانيا وما أعقبها من توقيع عقوبات على روسيا الاتحادية ثم جاءت بعض المستجدات التي قد تساعد في تقريب المسافات بين الجانبين لعل في مقدمتها:

1- تدفق موجات اللاجئين السوريين عبر المنافذ التركية إلى القارة الأوروبية التي أصبحت عبئاً على دولها، واكتشفت فجأة أن سورية ليست بعيدة عن حدودها، وأصبح تدفق الهجرة غير النظامية مصدر قلق بالغ للأمن الأوروبي، بالمقابل جعل الدول الأوروبية أكثر فهماً لدواعي التدخل الروسي في سورية، وبالتالي دعمها لأي جهد يصب في خانة إنهاء الصراع فيها.

2- يضاف إلى ذلك أن الأحداث الإرهابية التي وقعت في باريس يوم 2015/11/13 منحت زخماً واسعاً للنقاشات السياسية في اجتماعات فيينا II وتحريك الموقف نسبياً وجعلت فرانسوا أولاند يقول "إن الأسد لا يمكن أن يكون حلاً، لكن عدونا في سورية هو داعش". وبدأت الطائرات الفرنسية في ضرب قواعد "لداعش" وتنسق مع الطلعات الروسية، ولكن عوامل ثقة فرنسا في النوايا الحقيقية لروسيا لم تترسخ بعد، لاسيما

بعد لقاء القمة الأمريكية الفرنسية. ولكن هناك اقتراب للموقف الفرنسي من الاتجاهات الروسية، انعكست في تصريح وزير خارجية فرنسا "من أن باريس مستعدة لقبول تحالف يضم الجيش النظامي السوري لقتال داعش"، لكن بالمقابل نجد دولة كألمانيا عبرت بتاريخ 2015/10/15 على لسان انجيلا مركل عن "أن الصراع في سوريا هو أكبر سبب لتدفق اللاجئين إلى أوروبا، وأنه لتحقيق السلام والاستقرار لهذه الدولة، نحتاج إلى عملية حوار سياسي تشمل روسيا وقوى عالمية أخرى من بينها القوى الإقليمية".

وذهب رئيس المفوضية الأوروبية جان كلود أبعد من ذلك فصرح يوم 10/5 أن علاقات الاتحاد الأوروبي مع روسيا يجب ألا تخضع لإملاءات واشنطن، في إشارة واضحة إلى العقوبات الاقتصادية التي فرضها الاتحاد الأوروبي على موسكو منذ العام الماضي على خلفية اتهامات البيت البيض لروسيا بدعم المسلحين الانفصاليين في شرق أوكرانيا.[(12)]

الموقف المصري:

تتمثل عناصر الموقف المصري فيما يلي:

- لابد من إيقاف معاناة الشعب السوري التي طال أمدها، وأنه لا يوجد حل عسكري للأزمة السورية وأن الحل لابد أن يكون سياسياً، وضرورة مكافحة الإرهاب في سورية.
- وفتحت مصر أبوابها للمعارضة الوطنية السورية وبصفة خاصة تلك التي لم تلوث يدها بالإرهاب، وطالبت بأن يسمو الجميع فوق طموحاتهم الشخصية، وأن يكون هدفهم حماية الدولة السورية والحفاظ على مؤسساتها.

وهي عناصر تقترب في مجملها من المنظور الروسي لحل الأزمة السورية. ويلاحظ في بعض الأوساط الإعلامية الخليجية اعتبرت أن هناك خللاً حقيقياً في فهم الأزمة

---

(12) جريدة الأهرام، بتاريخ 2015/10/28، ص21.

السورية في مصر.[13] "وأن مصر لا تخفي ترحيبها بالتدخل الروسي، وتعتبره متوافقاً مع سياستها في سورية التي كانت ضد النظام، ثم تحولت محايدة، ثم مالت لصالح النظام تحت ذريعة الحفاظ على مؤسسات الدولة" ثم ذهبت إلى حد القول أن هذا الموقف "يسجل نقطة سوداء في السياسة الخارجية المصرية".[14] وهو تقييم فيه مبالغة، فما لم يتم وقف الصراع الراهن سيستمر مخطط تفكيك الدولة السورية ومقومات الحياة المشتركة، وحدوث المزيد من الهجرة والتهجير وسقوط أعداد من القتلى والجرحى، ونصبح أمام سورية افتراضية.

كما أن الموقف الروسي من بشار الأسد هو موقف مرحلي ستتطلبه الفترة الانتقالية وسيتغير بعد انتهائها. والتدخل الروسي لحسم الصراع العقيم الجاري حالياً في سورية ربما يكون من نوع الشر الذي لابد منه، ولتجنب تكرار ما حدث في العراق بعد الغزو الأمريكي. وبالنسبة لحادث سقوط الطائرة الروسية في سيناء فإن هدفها كان مزدوجاً: إحراج بوتين داخلياً بالضغط عليه من قبل الرأي العام الروسي، عندما يشاهد توابيت الضحايا، وأيضاً الضغط على الداخل المصري نتيجة التداعيات السلبية التي أحدثها هذا الحادث على السياحة المصرية وقد أمكن استيعاب التوتر الذي حدث في العلاقات المصرية الروسية وبقي تصحيح تداعياته التي ستطلب بعض الوقت.

ثالثاً: تقييم أولي لنتائج التدخل الروسي

1- أدى الزخم الروسي واتصالاته بمختلف الأطراف المعنية إلى عقد الاجتماع الدولي الإقليمي الثاني في فيينا يوم 2015/10/30 وضم ممثلي وزراء خارجية 17 دولة من بينها مصر وقطر وإيران وإيطاليا وألمانيا والإمارات والصين وإيران وبريطانيا وغيرها، إضافة لمنظمات دولية لبحث مبادئ لحل الأزمة السورية وتوصلوا إلى إصدار بيان تضمن تسعة مبادئ من بينها: "وحدة الدولة السورية واستقلالها وسلامة أراضيها

---

(13) طارق الحميد، "مصر تؤيد روسيا في سوريا" صحيفة الشرق الأوسط، عدد 2015/10/5.

(14) سلمان الدوسري، "مواجهة روسيا بمناطق آمنة" صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ 2015/10/5.

والإبقاء على مؤسسات الدولة. وأن تكون العملية السياسية عملية سورية وبقيادة سورية والشعب السوري هو الذي سيقرر مستقبل سورية وأن يعمل المشاركون مع الأمم المتحدة لاستكشاف وتطبيق صيغ لوقف إطلاق النار في كافة أنحاء البلاد يبدأ العمل بها بتاريخ محدد وبالتوازي مع استئناف العملية السياسية". وهذه المبادئ تمثل تقاطعًا مصلحيًا للأطراف المجتمعة، وجاءت متوافقة وإلى حد كبير مع الأفكار الروسية، وتم الاتفاق على جدول زمني محدد لتشكيل حكومة انتقالية خلال 18 شهراً.

2- وانتقد البعض غياب ممثلي النظام السوري والمعارضة ويعود ذلك ربما لعدم الوعي الكافي بأن الحرب التي تدور على الأراضي السورية أصبحت في الواقع حربًا بالوكالة وبالتالي فإن مناقشات التسوية السياسية الأولية، لابد أن تتم بدورها بالوكالة بجلوس الحلفاء الخارجيين إلى مائدة المفاوضات بهدف بلورة حل وسط من التفاهمات السياسية ثم محاولة فرضه على الأطراف المحلية. إضافة إلى أن المعارضة السورية تعاني من انقسامها ولابد من التوصل أولاً إلى اتفاق مشترك بينها حول وفد واحد يمثلها في المفاوضات التالية، وسيتم عقد مؤتمر في الرياض في منتصف ديسمبر 2015 لهذا الغرض، إضافة للخلاف حول معايير التنظيمات التي توصف بالإرهابية وغيرها، وقد تم تكليف الأردن بهذه المهمة الصعبة ذات المرجعيات المختلف حولها.

3- يلاحظ أنه في الوقت الذي كانت تقوم فيه المقاتلات الروسية باستهداف مواقع الجماعات المتطرفة وفي مقدمتها "داعش"، فإن القادة الروس لم يتوقفوا عن التحركات الدبلوماسية الدولية لإحداث توافق في الآراء بين مختلف الأطراف المتصارعة لأهمية عنصر الوقت بالنسبة لروسيا وهي مهمة ليست سهلة عبر عنها أحد الكتاب بشكل موفق بقوله "إن سلام سورية أصعب من حربها".[15]

(15) عادل مالك، "سلام سورية أصعب من حربها، الأسد الأكثر تكلفة"، الحياة 2015/10/31.

وأياً كانت صعوبة التوصل إلى حل توافقي بين مختلف الأطراف، فإن التدخل الروسي حرك المياه الراكدة وغير حالة الجمود السياسي التي كانت سائدة ووصل إلى آفاق واقع جديد للتوصل إلى اتفاق سياسي إقليمي/دولي حول سورية وتحول معه الجانب الروسي من مجرد ضامن للنظام السوري من الخارج إلى شريك نشط في السعي لإيجاد حل للأزمة السورية ويعيدها إلى مكانها الطبيعي كأزمة سياسية، بعد أن أصبحت تدريجياً أزمة لاجئين وأزمة إنسانية.[16]

4- وإذا كان من المبكر الحديث عن النجاح في التوصل إلى تسوية سياسية فإنني أعتقد أن التقاء مختلف الفرقاء حول ما أسميه "استراتيجية نفاذ الصبر وفقدان القدرة على الحسم والتحمل"، أوجدنا أمام حالة من توازن الضعف المتبادل للأطراف المتصارعة وهي حالة عادة ما تهيئ لتقبلها للحلول الوسط والتنازلات المتبادلة.

5- استطاعت القيادة الروسية إلى حدٍ ما أن تواجه عقدة بشار الأسد. فمع قناعتها – غير المعلنة – بأنه ليس له مستقبل على المدى البعيد لكنها ترى أن وجوده ضرورة في المرحلة الانتقالية، لإحداث انتقال مرن للأوضاع في سورية.

6- وإجمالاً فإن التدخل الروسي أربك الجميع وجعلهم يعيدون حساباتهم السياسية [17] وزاد في نفس الوقت من حجم رهان روسيا الاتحادية في سورية في منطقة شديدة التعقيد، وفي مواجهة الولايات المتحدة التي اتبعت حتى الآن سياسة الامتناع عن الفعل الجاد وتحريك حلفائها لعرقلة المساعي الروسية. والحادث الذي ارتكبته تركيا ضد الطائرة العسكرية الروسية ليس ببعيد.

ولا يعني ما تقدم بطبيعة الحال أن مسار الحل السياسي سيسير بلا معوقات، فلا تزال بعض القوى الدولية لها مصلحة في عرقلة التسوية السياسية لتحجيم النفوذ الروسي في المنطقة، وبعض الأطراف الفاعلة في الصراع لا تبدو حتى الآن مستعدة للتضحية

---

(16) مأمون فندي، "سايكس – بوتين"، صحيفة الشرق الأوسط، لندن ، 2015/10/5.

(17) حسين عبد العزيز، "الدور التركي بعد تدخل روسيا في سورية"، الحياة، 2015/10/14.

بأنصارها، كما أن الجماعات المتطرفة في الداخل ليس لها مصلحة في إيجاد مخرج سياسي للمحنة السورية، لأن النجاح في التوصل إلى ذلك معناه غلق صفحة هذه الجماعات وإجبارها على مغادرة الأراضي السورية. ومن هنا فإن المرحلة القادمة ستكون أصعب المراحل، وستتطلب ضمن أمور أخرى، ضرورة تدخل قوة برية إقليمية/دولية لحسم الصراع ميدانياً ولطرد القوى والعناصر الأجنبية الدخيلة.